فضْل العِلْم وطلبِه

للشيخ / عمر بن مثيب العتيبي -حفظه اللَّه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وعليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فنحمد الله جل وعلا ونشكره على ما منَّ به علينا من الاجتماع في مثل هذه المجالس التي نتذاكر فيها شيئًا من الأمور التي تتعلقُ بالعلم الذي فضَّله الله عَزَّوَجَلَّ، ومن توفيق الله تبارك وتعالى للعبد أن يوفقه لطلب العلمِ وأن يمُن عليه بالإقبال عليه وتحصيله.

هذه المجالس -بحول الله وقوته- وهذا أولها: سيكون الحديث فيها عن بعض المسائل والأمور التي تتعلق باقتناء الكتب وما يتصل بذلك من توجيهات وإرشادات.

ولكن قبل الشروع في ذلك: أرى أنه ينبغي الحديث في أمر مُهم وهو: أن يستشعر الإنسان منَّة الله جل وعلا عليه من وفقه الله عَزَّوَجَلَّ وحبب إليه طلب العلم والإقبال عليه وسماع آيات الله تبارك وتعالى وأحاديث النبي ﷺ، وأن يتفقه في أمر دينه، فليعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أنعم عليه بنعمةٍ عظيمة نعمة امتن الله عَزَّوَجَلَّ بها على بني آدم ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥]، بل امتن الله عَزَّوَجَلَّ بهذه النعمة على أنبيائه ورسله، وامتن بها على أشرفهم وخيرهم وأفضلهم وأزكاهم وهو نبينا ﷺ إذ يقول له ربه تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] . ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ بما أنزل عليك من الكتاب والحكمة وبما علمك الذي لم تكن تعلمه من قبل، فطالب العلم والمسلم عمومًا إذا استشعر أن ما منَّ الله عَزَّوَجَلَّ به عليه من طلب العلم والإقبال

عليه نعمةٌ عظيمة فإن ذلك يُقبل بقلبه على شُكر الله عَزَّوَجَلَّ على هذه النعمة، يُقبل بقلبه على شُكر الله عَزَّوَجَلَّ على هذه النعمة، ويعظُم الأمر ويشتد أهميةً عندما يرى المسلم ويسمع أخبار أقوامٍ تركوا طلب العلم بعدما من الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بسلوكهم، بل منهم من تجاوز ذلك فترك الطاعة إلى المعصية، ومنهم -أعاذني الله وإياكم- من ترك ملة الإسلام الحنيف وابتغى ملًا أخرى من ملل الكفر والإلحاد، وما ذلك منهم إلا أنهم لم يشكروا نعمة الله عَزَّوَجَلَّ التي أنعم بها عليهم، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٨] ، فينبغي للإنسان أن يحمد الله عَزَّوَجَلَّ وأن يشكره على نعمه، لأن العبد فيما يتعلق بالنعمة شاء أم أبى إما أن يكون شاكرًا وإما أن يكون كافرًا، النعمة التي يُنعم الله عَزَّوَجَلَّ بها عليك ولا تظن أن النعمة محصورة في نعم الدنيا من مالٍ وولدٍ ووظيفةٍ وبيتٍ وزوجة، هذه نِعم لكنها نِعم قاصرة هناك نِعم أكمل وأعظم وأرفع وأجل هي نِعم الدين نعمة العلم نعمة الإيمان، نعمة العمل الصالح، نعمة التوفيق لتوحيد الله تبارك وتعالى ولزوم سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه النعمة إما أن تشكرها وإما أن تكون كافرًا بها، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول عن نبيه سليمان أنه لما أُتي له بالعرش ورآه مستقرًا أمامه: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

فهذه النعمة إما أن تشكرها وإما أن يكون ذلك البعيد كافرًا بها.

وكُفر النعمة قد يكون كُفرًا أكبر مخرجًا من الملة.

وقد يكون كُفرًا أصغر صاحبه يكون من العُصاة والفُساق الذين لم يشكروا نعمة الله

عَزَّوَجَلَّ.

۞ **وشكر النعمة له ثمارٌ عظيمة:**

الأولى: أنه سببٌ في تثبيتها.

ثانيًا: أنه سبب في زيادتها ونمائها.

سببٌ في تثبيتها كما جاء في قول كثير من أهل العلم: «**أن النعمة صيدٌ والشكر قيد**»، وأما مزيد النعمة بالشكر فذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

أقول: يا إخوان، هذا الأمر يتحتم الأخذ به كما ذكر لما نراه من أُناس لم يشكروا نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ برٌّ رحيم شكور عدلٌ جل وعلا لا يظلم عباده، لا يُسلب العبد نعمةً أنعمها الله عَزَّوَجَلَّ عليه إلا بأسبابٍ قامت من قِبل نفسه، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨]، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]. فهذه الأسباب ينبغي أن يقف العبدُ معها وأن يتأملها ويتدبرها، وأن يُحسن الوقوف عندها، حتى يأخذ بأسباب السلامة والنجاة والفوز والفلاح ويبتعد عن الأسباب التي تكون مؤديةً لسلب هذه النعم.

فأول تلك الآفات وأعظمُ تلك الأسباب التي يُحرم العبد فيها من هذه النعمة وتكون سببًا في أن يُسلبها: هي عدم الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وفُقدان النية الصالحة في طلب العلم، طالب العلم إن كان مُخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ يُريد وجه الله تبارك وتعالى يُريد ما عند الله عَزَّوَجَلَّ والدار الآخرة قصده هو وجه الحي القيوم الذي بيده مقاليد كل شيء، الذي بيده الخير كله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] فوجه الله تبارك وتعالى وذاته باقيان لا

يفنيان، وأما ما سوى الله وما أُريد به غير الله جل وعلا فمآله الفناء، فمن أراد وجه الله عَزَّوَجَلَّ فلماذا ينقطع؟ إن كان مقصوده دائمٌ وهو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، فإذا أراد وجه الله تبارك وتعالى فمن الذي يجعله ينقطع؟ إن كان مقصوده ربه ورضاه وثوابه مُصدقٌ بوعد الله عَزَّوَجَلَّ وجزائه يؤمن بذلك يحتسب ما أعده الله عَزَّوَجَلَّ له على طلبه للعلم فإنه لا ينقطع، لأن ليس مقصوده أن يصل إلى غايةٍ ودرجة يقف عندها، وإنما هو في عبادةٍ يُفكر في أن يُحسنها ويتقنها لينال رضا الله جل وعلا عليه بها، أما الذي يطلب العلم لغير وجه الله عَزَّوَجَلَّ يُريد عرضًا من الحياة الدنيا يريد شهادةً يريد وظيفةً يريدُ ترقيةً أو تحسين راتبٍ ونحو ذلك، فهذا في الغالب متى وصل إلى ما يُريده ويحتاجه انقطع، وكذلك الذي يُريد أن يصرف وجوه الناس إليه، فإذا صُرفت إليه وقف، وإذا صُرفت عنه انصرف، ينصرف عن العلم ولا يتمسك بالذي كان عليه من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، العلم عبادة كما لا يخفى عليكم، وقُربةٌ لله جل وعلا، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ لا ينال إلا بالعبادة التي يُخلص العبد فيها لربه تبارك وتعالى: «**إن الله طيب لا يقبل من العملِ إلا طيبًا، وإن الله** عَزَّوَجَلَّ **أغنى الشركاء عن الشَّرْك، من عمل عملًا أشرك فيه مع الله تبارك وتعالى تركه الله** عَزَّوَجَلَّ **للذي أشرك**» وهو غني عنه سبحانه وتعالى كما جاء في حديث أبي هريرة، وهذا الأمر وهو أهمية النية في طلب العلم هو الذي حمل أهل العلم على أن يُصدروا حديثهم وأن يكثر كلامهم ووصاياهم فيما يتعلق بأهمية النية لطالب العلم، ولا يخفى عليكم ما يُذكر عند شرح حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**» وأنه ينبغي أن يُفتتح به كل كتاب مصنف في العلم كما ذكره جماعةٌ من أهل العلم، بل من أهمية هذا الأمر ما جاء عند البخاري في حديث عمر رضي الله عنه يقول علقمة: «**سمعتُ عمر بن**

الخطاب يخطب وهو يقول: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إنما الأعمال بالنية» أمر النية شأنها عظيم حتى أن النبي ﷺ كان يخطب بها في أصحابه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يتبع النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك فيخطب بها في الصحابة والتابعين ليُحيي من أمر النيةِ والإخلاص في الإقبال على الله تبارك وتعالى وطلب ما عنده.

يقول الله تبارك وتعالى في بيان أمر النية وشأنها: وهي من الآيات العظيمة في الحقيقة ويحتاجها طالب العلم مع كثرة الشواغل وكثرة الفتن وتقلب الأحوال يقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ مبشرًا الصحابة: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح:١٨]، تأملوا يا إخوان! ﴿**فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ**﴾.

إذًا إنزال السكينة وإثابتهم الفتح القريب النصر والتأييد والحفظ والرعاية والتمكين لهم فيما طلبوه، إنما كان لما علمه الله عَزَّوَجَلَّ مما قام في قلوبهم من الإخلاص لله جل وعلا، والصدق في طلبه تبارك وتعالى والإيمان العظيم الذي تحلوا به رضي الله عنهم وأرضاهم. وهذا يحتاجه طالب يعني يحتاج إلى أن يُنزل الله عَزَّوَجَلَّ عليه السكينة، كثرة القيل والقال وكثرة المشاكل والخلافات، وكثرة الفتن التي تعرض بالأمة، وما أن يُفيق طالب العلم من خبرٍ وحدث إلا ويدخل في خبرٍ وحدثٍ جديد، ويسمع فلان ترك وفلان فُتن وفلان حصل له كذا وفلان عرض عليه كذا من إخوانه ومن هم حوله، إن كنت مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ تريد وجه الله تبارك وتعالى فأبشر بنزول السكينة طمأنينة النفس وانشراح القلب وسكون الخاطر، وهذا من أعظم ما يحتاجه طالب العلم عند طلبه للعلم، طالب العلم إذا كان مشتتًا متقلب البال

كثير الهموم والغموم فإنه لا يوفق في طلب العلم يشعر أن طلب العلم ثقيل عليه، ولا يستطيع ضبطه ولا إحكامه.

فهذا من ثمار طلب العلم.

۞ أيضًا من ثمار طلب العلم بإخلاص لله تبارك وتعالى:

أن المُخلص لله عَزَّوَجَلَّ يكون له الكفاية من ربه تبارك وتعالى على قدر إخلاصه وإجادته لعبادة ربه تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦] الله تبارك وتعالى من فضله وإنعامه على عباده أنه ما قال: "أليس الله بكافٍ نبيه"، أو "أليس بكافٍ رُسله"؟ وإنما قال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ لبيان سبب الكفاية الذي متى وُجد تحققت للعبدِ الكفاية من ربه ومولاه، وعلى قدر عبوديته لله جل وعلا ينال الكفاية من الله عَزَّوَجَلَّ.

كثير من طلاب العلم يود أن يُكفى أمور دُنياه، وأن تُبعد عنه الفتن، وأن يسلم من الشهوات، وأن يُعصم من الشبهات، الله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ فحقق العبودية لله جل وعلا في طلبك للعلم مخلصًا فيه تبتغي وجه الله تبارك وتعالى وسيكفيك الله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يخلف وعده سبحانه وتعالى.

هذا الأمر - يا إخوان- لما علمه السلف أيضًا عظُمت عنايتهم به.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الذي روى: «**إنما الأعمالُ بالنيات**» كتب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه قائلًا: «**من خلُصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن للناس بما ليس في قلبه شانه الله**» يشينه الله تبارك وتعالى بأن يُظهر

حاله، ولذلك في الحديث: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» وذلك كما جاء في الحديث: «**فيما يبدو للناس**» ولذلك ينقطع أمثال هؤلاء عن طلب العلم.

والآثار لا تخفى على مثلكم في أهمية في فضل العلم، ولكني أقف عند آيتين تتعلقان بما تقدم ذكره في كفاية الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الكفاية تشمل الكفاية قد يظن البعض أن هذه الآية وهي: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ يعني الكفاية من الأعداء، وأنها لا تشمل الكفاية والصيانة والرعاية من الذنوب والشهوات ووساوس الشيطان وإغوائه، يقول الله جل وعلا في حق يوسف عليه السلام: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف:٢٤]، وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ فيما يتعلق بالشيطان قال الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [الحجر:٤٢]، وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن إبليس قال: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص:٨٣] بفتح اللام وقد قُرئ بكسر اللام أي: المُخلِصين، فبإخلاصهم أخلصهم الله تبارك وتعالى واصطفاهم، الجمع بين القراءتين: أنه بإخلاصهم لله عَزَّوَجَلَّ أخلصهم الله وخلَّصهم من وساوس الشيطان وكيده، فعصمهم الله عَزَّوَجَلَّ من أن يظلوا أو ينحرفوا بعدما من الله عَزَّوَجَلَّ عليهم به من الهداية والتوفيق.

إذن: هذا السبب الأول: وهو يحتم على طالب العلم العناية بأمر النية، المسلم عمومًا ينبغي له أن يُصلح نيته في كل عملٍ يعمله لوجه الله تبارك وتعالى.

السبب الثاني: فيما يظهر -والله أعلم- أن من أعظم الأسباب التي أدَّت بانقطاعٍ كثير ممن انقطع عن طلب العلم ونحن مقبلون عن الحديث عن الكتب وأهمية الكتب والقراءة، وهذا

لا يكون إلا لمن استمر، والتركيز على هذه المسائل في ابتداء الأمر عندي أهم مما سيأتي، يعني لا يخفى عليكم أن طالب العلم والمسلم عمومًا يحتاج إلى أن يأتي بالأسباب التي يتحصل بها على العلم ويدفع عنه الآفات التي تضر بعلمه، وهذه الأسباب أيضًا راجعة لما هو متقرر في علم التوحيد والاعتقاد من أنها بها يتحقق التوحيد ويتم للعبد توكله على الله جل وعلا.

التوكل هو: صدق الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به في ذلك، وبذل الأسباب وعدم الالتفات إليها.

الأسباب التي يحتاجها طالب العلم في تحصيل العلم: عائدة إلى سببين:

- **هناك أسباب معنوية.**

- **وهناك أسباب حسية.**

الأسباب الحسية: كثيرة، الكتابة، القراءة، الحفظ، شراء الكتب وقراءتها، حضور مجالس العلم، وجود المشايخ، وجود الدروس الصوتية المسجلة والمرئية، هذه كلها من الأسباب الحسية، وليست هي أعظم ما يحتاجها طالب العلم أعظم ما يحتاجه طالب العلم الأسباب المعنوية، وهي التي تعود إلى ما في القلوب وفي صلة العبد بينه وبين ربه جل وعلا، وأعظمُها الذي تقدم معنا وهو الإخلاص لله جل وعلا، جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «**إنما يُرزق المرء من العلم على قدر نيته**» وجاء عنه أنه إنما يحفظ المرء على قدر نيته، فإصلاح القلب في هذا الأمر من الأهمية بمكان، فالتركيز عليه مهم جدًّا، فتحدثنا عن الإخلاص.

الأمر الثاني: لا يقل أهمية عن ذلك وهو قلة تزكية النفس وعدم تعاهدها وإصلاحها بالنظر فيما كُتب في فضائل العلم، وفيما جُمع من نصوص الوحيين قرآنًا وسنة في فضل العلم وشرفه ومنزلته ومكانته، فتجد أن صلة طالب العلم بهذا الباب بعيدة جدًّا، وإنه إنما استمع إلى محاضرةٍ في بداية الطلب أو قرأ رسالةً في بدايات الأمر، أو تجده انشغل فيما كُتب في الأسباب الحسية وأغفل فيما يتعلق بالأسباب المعنوية التي بها ينال العبد حقيقة العلم، متى ما صاحبه التوفيق من الله تبارك وتعالى، وأعانه الله عَزَّوَجَلَّ على ذلك.

وهذا الذي أدى بكثير من طلاب العلم يا إخوان إلى أنهم زهدوا في العلم ورغبوا عنه في أعمالٍ فاضلة هي أقل منه في الدرجة، يعني الجمع بين الطاعات لاشك أنه محمود وممدوح لمن تمكن من ذلك، يعني طالب علم عُرف بالعلم فترةً وبطلبه وتحصله وتلقيه وجلس عند المشايخ، ثم تجده بعد مدة انشغل بأعمال إغاثية أو أعمال خيرية هذا شيء طيب لمن استطاع الجمع بينهما، الأصل الجمع بين الأعمال الصالحة، ولكن عند التزاحم القاعدة: [إذا تزاحمت عندك المصالح والأعمال تُقدم الأعلى منها] الأفضل هذا ما الذي جعله يُقدم الأدنى؟ أنه استحضر نفع المسلمين يأتيه واحد يقول له: يا أخي نفع إخوانك المسلمين الناس محتاجة، فتأخذه العاطفة وعلى قدر ما اطلع عليه من النصوص رغب في هذا العمل فترك العمل الأفضل، السبب: بُعد عهده وقلة معرفته ونقص اطلاعه على النصوص الواردة في فضل العلم ومكانته، العلم من أفضل الطاعات والقُربات، وقد تتابعت على ذلك عبارات أهل العلم وجاءت النقول عنهم في هذا الباب كثيرة جدًّا، وأذكر لكم بعض ما وقفت عليه في ذلك.

يقول أبو عبد الله محمد بن يوسف الفريابي -غير صاحب كتاب القدر- هذا صاحب سفيان الثوري يقول: «**قال لي سفيان الثوري رحمه الله تعالى وقد اجتمع الناس عليه يقول له: يا محمد ترى هؤلاء ما أكثرهم**» قد كان سفيان له مكانته سفيان رحمه الله الثوري من أئمة الحديث ومن أئمة الإسلام يقول: «**ترى هؤلاء ما أكثرهم ثلثٌ يموت، وثلثٌ يتركون هذا الذي تسمعونه ومن الثُّلث الآخر قل من ينجو**» سفيان ما أراد بهذه الكلمة أن يُثبط همة هذا الطالب النجيب من طلابه، وإنما أراد به أن يستشعر أن الأمر عظيم، أحيانًا ما الذي يجعل الإنسان يتهاون؟ إذا رأى الطلاب في حِلق العلم كثير قال: «**الحمد لله غيري يسد الباب وتحصل بهم الكفاية**» ما أراد سفيان أن ترد هذه الشبهة على تلميذه فأراد أن يكسر عنده هذا الأمر، أنت إذا طلبت العلم لا تظن أن غيرك سيقوم به، وإنما احتسب عند الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلك من القائمين به، والموجودون قد ينقطع بهم السبيل، قد تُدرك المنية بعضهم ولما يصل، ومنهم كما قال سفيان: يترك هذا الذي سمع والبقية قل منهم من ينجو، لذلك سفيان نفسه الذي جاءت عنه هذه الكلمة رحمه الله تعالى وهي التي قالها لتلميذه الفريابي جاء عنه أنه قال: «**لا أعلمُ من العبادة شيئًا أفضل من أن تُعلم الناس العلم**» وقال رحمه الله عبارةً أصرح: «**ما أعلمُ على جه الأرض من الأعمال أفضلُ من طلب الحديث لمن أراد به وجه الله** عَزَّوَجَلَّ».

بل قال سفيان لابن المبارك -وهو تلميذه- وسيأتي آخر نربطه في هذا في حينه يقول ابن المبارك: «**قال لي سفيان: ما يُراد الله**» أي: ما يُقصد الله جل وعلا بشيءٍ أفضل من طلب العلم، وما طلبُ العلم في زمان أفضل منه اليوم، وسفيان توفي رحمه الله في حدود المائة

والثماني وستين أو وسبعة وستين هجري، يعني تكلم عن القرن الثاني يقول: «**إن طلب الحديث لا يوجد زمان أفضل منه في يومه**» الخطيب البغدادي لما ذكر هذا بين أن السبب قلة المشتغلين بالعلم وعظم الحاجة إليه، في ذاك الزمن الذي كان فيه الأئمة متوافرون والعلم شائعًا ذائعًا والسنة ظاهرة رحمهم الله تعالى، وهذا الذي قرره سفيان قرره جماعة من أهل العلم، بل حكى بعضهم الاتفاق عليه الشافعي رحمه الله تعالى ذكر عنه البيهقي في «**المناقب**» يقول: «**قال ابن عيينة**» سفيان بن عيينة «**لم يُعط أحدٌ في الدنيا شيءٌ أفضل من النبوة، ولم يُعط شيءٌ بعد النبوة أفضلُ من طلب العلم**» هذا في الدنيا «**ولم يُعط أحدٌ في الآخرة أفضل من الرحمة**» لأن بالرحمة ينال دخول الجنة. يقول الشافعي: «**فقيل له: يا أبا محمد عمَّن هذا؟**» يعني أنت الآن تحكي عبارة عظيمة أن هذا أفضل شيء في الدنيا وذاك أفضل شيء في الآخرة فقال رحمه الله: «**عن الفقهاء كلهم**» تفضيل العلم على هذا الوجه على غيره من الأعمال جاء عن الفقهاء كلهم وقد تتابعت عبارات أهل العلم في هذا الباب وهي كثيرة جدًّا: من أشهرها: ما جاء عن ابن شهاب الزهري في قوله: «**ما عُبد الله بمثل العلم**» وجاء عن التابعي الجليل مُطرف بن عبد الله الشخير أنه قال: «**فضلُ العلم أحبُّ إلي من فضل العبادة وخيرُ دينكم الورع**». وجاء بنحوه مرفوعًا إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع.

يقول النبي ﷺ: «**فضلُ العلم أحبُّ إليَّ من فضلِ العبادة، وخير دينكم الورع**».

هذا الأمر الذي قرره أهل العلم من جهة أن العلم أفضل الأعمال ما أتوا به من قِبل أنفسهم، وإنما كان راجعًا إلى ما وفقهم الله عَزَّوَجَلَّ فيه للفقه من دين الله تبارك وتعالى، وما

وجدوه في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من النصوص المتكاثرة في هذا الباب، **نذكر جملةً منها من باب التذكير واستحثاث الهمم:**

- يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١] هذه الآية لو لم يكن في فضل العلم إلا هي لكان كافيًا في حث طالب العلم على الثبات عليه: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [المجادلة:١١] على ما هم عليه من أعمالٍ صالحة في شتى أبواب الطاعات والقُربات: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ هؤلاء يرفعهم الله عَزَّوَجَلَّ على من ليس من أهل الإيمان ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾؛ أي: أن لأهل العلم رفعةً فوق رفعة أهل الإيمان، فدل على شرف العلم وأن رفعة أهل العلم متفاوتة في درجاتٍ على قدر ما عندهم من العلم، فعلى قدر العلوم التي حصلوها وما وفقوا فيها بعد ذلك من إتباعهم العمل للعلم الذي عملوا به يرفهم الله جل وعلا درجات على أهل الإيمان، وقد بين أهل العلم أن هذه الرفعة في الدنيا والآخرة، لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يُقيد ذلك ما قال: درجاتٍ في الدنيا، وما قال: درجاتٍ في الآخرة، فلهم الرفعة في الدنيا والآخرة، الرفعة في الدنيا بالذكر الحَسَن والصيت الذي يُبقيه الله عَزَّوَجَلَّ لهم، ودعاء الناس لهم، وأما في الآخرة فبما يُنيلهم الله عَزَّوَجَلَّ من الثواب الجزيل وبعلو الدرجة والمنزلة في الجنة.

۞ أيضًا من فضائل العلم:

ما ذكره ابن القيم -وهو من المقارنات اللطيفة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله- يقول ابن القيم رحمه الله: «**أن الله عَزَّوَجَلَّ نفى التسوية بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون يقول: كما نفى الله عَزَّوَجَلَّ التسوية بين أهل الجنة وأهل النار، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ**

﴿يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] هنا السؤال سؤال إنكار، يعني لا يستوون، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر:٢٠] لا يستوي العالم بالله عَزَّوَجَلَّ وبكمالاته وبحقوقه جل وعلا، وبما أعد الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الطاعة في الآخرة وبما أعده الله عَزَّوَجَلَّ للعصاة من النار لا يستوي مع الذي لا يعلم.

❁ وأيضًا من الآيات الدالة على فضل العلم:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] فذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية أن أهل العلم هم أهل الخشية، بل حصر الله عَزَّوَجَلَّ خشيته وقصرها فيهم، فقال: «إنما» وإنما: من أدوات الحصر، هذه الآية فيها أن العلم سببٌ في إيراث خشية الله تبارك وتعالى، وأن أكمل الناس خشيةً لله عَزَّوَجَلَّ من تتحقق فيهم الخشية الحقيقية هم أهل العلم، تمام معرفة فضل هذه الآية يظهر بجمعها إذا ما جاءت في سورة البينة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧] ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٨].

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية أن خير البرية هم أهل الخشية ذلك الذي تقدم إنما هو لمن؟ لخير البرية، وفي الآية التي تقدمت بين الله عَزَّوَجَلَّ أن أهل العلم هم أهل الخشية فبمجموع الآيتين دلتا على أن أهل العلم هم خير البرية، من أراد أن يكون من خير البرية وخير عباد الله عَزَّوَجَلَّ فعليه أن يُقبل بالعلم، ولا يلتفت إلى شيءٍ سواه.

❁ من الآيات العظيمة الدالة على فضل العلم:

ما جاء في قول الله تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا

﴿بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨] هذه الآية قد دلت على فضل العلم من وجوه كثيرة يعني أوصلها إلى ابن القيم إلى عشرة أوجه.

يقول: **هذه الآية فيها الدلالة على فضل العلم من وجوه كثيرة وذكر فيها عشرة أوجه:**

- **الوجه الأول**: أن الله عَزَّوَجَلَّ استشهدهم، وقرن شهادتهم بشهادته، وقرن شهادتهم بشهادة ملائكته، وأيضًا الشاهد يُشترط فيه أن يكون عدلًا، يقول ابن القيم: «**وفي ضمن هذه الآية تعديلٌ لأهل العلم وتزكيةٌ لهم وبيانٌ لفضلهم وشرفهم وأنهم أهلٌ للأمانة وقبول للأخبار**».

وأيضًا أن الله عَزَّوَجَلَّ استشهدهم على أعظم وأشرفِ وأكبر مشهودٍ عليه وهو وحدانيته جل وعلا، وشهادة أن لا إله إلا الله.

۞ **من الآيات الدالة على فضل العلم:**

قول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] ولا يخفى عليكم كلام أهل العلم في هذه الآية، وأن الله عَزَّوَجَلَّ ما أمر نبيه ﷺ بالاستزادة من شيء إلا من العلم، وهذا دليلٌ على شرفه ومكانته، كون الله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر نبيه بأن يستزيد من شيء إلا من العلم، فهذا دليلٌ على أن العلم مطلوب رفيع القدر شريف المكانة حريٌّ بأن يُطلب منه الزيادة، وهذه الآية في سورة طه، وهي سورة مكية يقول سفيان بن عيينة رحمه الله: «**ولم يزل ﷺ في زيادةٍ من العلم حتى توفاه الله** عَزَّوَجَلَّ» مُنذ نزول هذه الآية والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في زيادةٍ من العلم، وهذا ما كان فقط قولًا من أهل العلم، وإنما كان امتثالًا من النبي ﷺ لأمر ربه جل وعلا، ولذا ثبت في عددٍ من الأحاديث أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يسأل ربه الزياد من العلم كما

جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها في «**مسند الإمام أحمد**» قالت: «**كان النبي** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **يقول في صلاة الصبح: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، ورزقًا طيبًا**».

وجاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في سنن ابن ماجه وغيره أنه قال: «**كان النبي** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **فيدعو فيقول: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا وأعوذ بك من علمٍ لا ينفع**».

جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث عن جابر أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمرهم بذلك يعني كان يدعو في خاصة نفسه، وأمرهم بذلك فقال: «**سلوا الله علمًا نافعًا واستعيذوا به من علمٍ لا ينفع**».

من اللطائف التي جاءت في هذا الحديث:

أن جابر رضي الله عنه لما سمع هذا الحديث أسرع إلى أهله، فقال: «**إني سمعت النبي** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **يدعو بهذا الدعوات فادعُوا بهن**» من أهله؟ تعرفون أن جابر بن عبد الله بن حرام والده استشهد، وترك له إخوةً، ولما سأله النبي ﷺ من تزوجت؟ قال: «**تزوجت ثيبًا**» ما تزوج بكرًا لتُصلح له أخواته كُن صغار ويحتجن من يرعاهُن.

إذًا ذهب إلى أخواته وزوجته رغبةً في وصول الخير لأهل بيته، **ولعله يأتي موضع نتكلم عن هذا الأمر وأهميته لطالب العلم**.

وبالنسبة للأدعية الواردة في طلب العلم، وأهمية الدعاء لطالب العلم لا تخفى عليكم منزلتها:

النبي ﷺ كما أنه كان يسأل الله عَزَّوَجَلَّ الزيادة له من العلم النافع كان يدعو لأصحابه

بالعلم النافع كما دعا لابن عباس، وكما دعا لأبي هريرة، ولعلنا نتكلم عن الدعاء لاحقًا إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

أما بالنسبة للسنة النبوية وما ورد فيها من فضلٍ للعلم فالنصوص كثيرة -يا إخوان- من أشهرها حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه وقف خطيبًا، وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من يُرد الله به خيرًا يُفقهه في الدِّين، وإنما أنا قاسمٌ والله يُعطي، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى قيام الساعة**».

۞ **هذا الحديث من الأحاديث العظيمة الواردة في فضل العلم**، وهو يُحيي في قلب طالب العلم معانٍ ينبغي له أن يقف عندها:

الأول: قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدِّين**»، وهذا يشمل خير الدنيا والآخرة، الخير كله في علمه وعمله فيما يُريده ويقصده من رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، وفي ما يترتب على طلب العلم من الثواب الجزيل والخير العميم من حفظ الله تبارك وتعالى له إلى آخره.

وبعد ذلك: أرشد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إرشاد لطيف وهو في قوله: «**وإنما قاسم والله يُعطي**» في ضمن هذا الحديث يريد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُرسخ في قلب أصحابه وهو خطابٍ لأمته من بعدهم أن حقيقة الإعطاء إنما تكون من الله جل وعلا، الذي يجعل كثير من طلاب العلم ينقطع أنه ما نال شيء من العلم وغفل أن المعطي هو الله تبارك وتعالى ظن أن الشيخ سيوصل له العلم كله، أو ظن أن هذه الكتب ستوفر له الوقت، جعل له جدول وجعل له برنامج يمشي عليه في طلب العلم، وظن أن بمجرد مسيره على هذا الجدول أنه سينال

العلم، لا يوجد أشرف من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا أرفع قدرًا ولا أكثر علمًا ومع ذلك قال عن نفسه: «**إنما هو قاسمٌ**» الذي يُعطي العطاء هو الله تبارك وتعالى، ودور النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يقسمه ويوصل لكل منهم قدره الذي يستحقه.

إذا كان هذا في حق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خير المعلمين وأنصحهم وأشرفهم فكيف بمن دونه في الدرجة؟ ليس له أن يوصل إليك شيئًا من العلم لم يكن الله عَزَّوَجَلَّ قد شاء أن يصلك فهذا الأمر يبين فضل العلم وفي نفس الوقت فيه توجيه عظيم لطالب العلم فيما ينبغي له أن يحققه من الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ قد شاء أن يصلك، فهذا الأمر يبين فضل العلم وفي نفس الوقت فيه توجيهٌ عظيم لطالب العلم فيما ينبغي له أن يُحققه من الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ وصدق الاعتماد على الله تبارك وتعالى.

۞ **أيضًا من العظيمة الدالة على فضل العلم:**

ما جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة والحديث مشهور: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**».

هذا الحديث فيه تثبيت لك يا طالب العلم على الطريق الذي أنت فيه، الأعمال الصالحة ما الذي ترجوه منها؟ ترجو أن توصلك إلى الجنة، غاية مطلوبك من كل عملٍ صالح أن تتوصل به إلى الجنة ورضا الله جل وعلا وأن تنجو به من النار، سلوكك لطريق العلم به تسهيلٌ من الله جل وعلا إلى أن يوصلك الجنة، «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**» أي: بالطريق الذي سلكه يسهل الله عَزَّوَجَلَّ له به طريقًا إلى الجنة.

وهذا الحديث وقف أهل العلم عنده وقفات عظيمة فيما يتعلق بقول النبي ﷺ: طريقًا،

والتماس العلم، والمعاني التي يتضمنها، نذكر شيء منها على سبيل الاختصار:

يقول النبي ﷺ: «**من سلك طريقًا**» وتعرفون «**مَن**» اسم أداة شرط تُفيد العموم في مثل هذا الموضع تُفيد العموم يعني كل من يعني كل الذي يسلك هذا الطريق فإنه موعود بهذا الوعد متى حقق الإخلاص، فكل من سلك له وعدٌ من الله جل وعلا لو لم ينل ذلك العلم الذي التمسه، هذا أولًا.

قال: «**من سلكَ طريقًا يلتمس فيه علمًا**» «**طريقًا**» نكَّر الطريق هنا ليفيد العموم فيشمل جميع الطرق قد نص ابن رجب على أن الطريق يشمل الطريق الحسي والطريق المعنوي وأعاد ذلك الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وقرره: «**مَن سلك طريقًا**» سواء كان هذا الطريق حسي أو معنوي حسي بأن تنقل الخُطى إلى المساجد، وأن ترحل إلى المشايخ، هذا طريق حسي، والطريق المعنوي: أن تقرأ وتحفظ وتجلس وتراجع، هذه طُرق معنوية في تحصيل العلم والتماسٌ لها، قال النبي عليه الصَّلَاة والسلام: «**مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**» سهل له به بماذا يا إخوان؟ بالطريق الذي سلكه، ما قال: إن وصل سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة؟ رتب التسهيل في الوصول إلى الجنة بمجرد سلوك الطريق، وإن لم يصل الإنسان وهذا تأكيدٌ للعموم الأول: «**مَن سلك طريقًا سهل الله به طريقًا إلى الجنة**».

۞ وأيضًا من الأحاديث الواردة في فضل العلم:

الحديث العظيم -لا يخفى عليكم- حديث أبي الدرداء الذي روى عنه كثير بن قيس في مسند الإمام أحمد وغيره أنه قال: «**كنتُ جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل**

فقال له أبو الدرداء: ما الذي جاء بك أي أخي؟ فقال: سمعتُ أنك تحدث حديثًا عن رسول الله ﷺ، فقال له أبو الدرداء رضي الله عنه: ما جئت لتجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت لحاجة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلا لتسمع هذا الحديث؟ قال: ما جئت من مدينة رسول الله ﷺ إلا لسماع هذا الحديث، فقال له أبو الدرداء: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا سلك الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر، ثم قال رضي الله عنه مُخبر أن النبي عليه الصَّلَاة والسلام قال: «وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه به أخذ بحظٍّ وافر».

۞ **هذا الحديث من الأحاديث العظيمة الواردة في فضل العلم**، وقد حسنه جماعة من أهل العلم وشرحه ابن رجب بجزء مستقل أوصيكم بالرجوع إليه، لأن هذا الحديث الوقوف معه قد يطول معنا، ولكن معانيه ظاهرة، ويكفي منه قول النبي عليه الصَّلَاة والسلام: «**وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض**» وذكرت سابقًا لبعض الإخوة أن تمام فهم هذا الحديث يحصل بجمعه مع الأحاديث الأخرى يعني استغفار من في السماوات ومن في الأرض ما الذي سيؤول بك إليه من المنزلة ما الذي سيترتب عليك فيه من العائدة، إذا تأملت قول النبي عليه الصَّلَاة والسلام: «**إن الرجل ليؤتى به يوم القيامة فيُرفع له في منزلته فيقول: من أين لي هذا**» هذا ليس من عملي فيُقال: «**هذا باستغفار ولدك الصالح لك**» باستغفار ولد صالح لأبيه كان سببًا في رفع منزلته في الآخرة عند الله جل وعلا، فكيف باستغفار من في السماوات ومن في الأرض؟ وهم أرجى في إجابة الدعوات وأيضًا لعلي

أختم بهذا الحديث ما جاء في قول النبي عليه الصَّلَاة والسلام في الحديث الذي تواتر تواتر معنوي في قول النبي عليه الصَّلَاة والسلام: «**نظَّر الله امرءًا سمع منا حديثًا حفظه كما سمعه رُب حاملٍ فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقهٍ ليس بفقيه**»، حفظ العلم وطلبه وتثبيته تنال به هذه الدعوة من النبي عليه الصَّلَاة والسلام لك بالنظارة والحُسن والبهاء والجمال عند لقاء الله تبارك وتعالى.

أقول: معرفة هذه الأمور تُحيي في القلب معاني الثبات على طلب العلم والرسوخ فيه، فينبغي لطالب العلم أن يُدمن النظر فيها، وأن يُكرر تأملها، وأن يُدمن الفكرة فيها ويتعاهد قلبه بإصلاحها، وإذا عرف طالب العلم هذه الأمور فإنه يثبت على طلب العلم لا ينتقل عنه إلا شيءٍ غيره ممكن أن يجمع، لكن أن يترك إلى غيره بعد أن عرف بعضًا من فضائله فلا شك أن هذا دليل على قلة الفقه ودليل على الحرمان، لأن الأمر يتحتم إذا عرفت أن العلم على درجتين حكم طلب العلم منه: ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية:

فرض العين: ما يلزم المسلم معرفته مما افترضه الله عَزَّوَجَلَّ عليه ومما لا يتم الواجب إلا به، سواءً في أمور ما يتعلق بالشهادتين أو فيما افترض الله عَزَّوَجَلَّ عليه من أركان الإيمان والإسلام وغير ذلك من المعاملات التي تلزمه.

يبقى بعد ذلك ما يتعلق بفرض الكفاية، وهو ما زاد على هذا القدْر، هذا القدر يُطلب من هذه الأمة أن يوجد فيها من يقوم به، فإذا قام به من يكفي سقط الإثم عن بقية الأمة وأصبح في حقه مندوبًا إليه.

يأتي السؤال الأول هنا: هَلْ وُجد من قام بما يكفي من طلب العلم في مجموع هذه الأمة

أم لم يوجد، وسأكرر هذا عند الحديث عن الحاجة إلى العلم؟ في الحقيقة لم يقل ونضرب مثال لعلنا نتعجله من باب إيضاح الأمر.

تعرفون لما مرت قبل فترة -نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرفع البلاء- أزمة كرونا ما الذي حصل؟ أزمة كرونا تتعلق بأبدان الناس وصحتهم ومعاشهم؟ حصل أن جهاز الصحة شكى من ضعفه وعدم مقدرته على مواكبة هذه الآفة والأزمة ما يستطيع أنه يدافع هذا الأمر ولا أن يسد حاجة الناس قد يكون دفعه هذا أمره بيد الله تبارك وتعالى، ولكن أن تسد حاجة الناس شكى عجزه وضعفه وعدم إمكانياته لمقاومة هذا الأمر وسد حاجات الناس في هذا الباب، كم عدد الأطباء في الكويت الأطباء البشريين ما نتكلم عن غيرهم؟ يُقاربون تسعة آلاف طبيب بشري، والمساعدون يتجاوزون الاثنا عشر ألفًا والطاقم التمريضي قرابة الواحد وعشرين ألف، هذا فيما يتعلق بأبدان الناس كل هذه الإعدادات وما استطاعوا أن يسدوا هذه الحاجة؟ فكيف بأن كل مواطن في هذا البلد وكل مقيم في حاجةٍ إلى العلم الشرعي، ولو ذهبت تلتفت يمنةً أو يسرة تُعدد أهل العلم طلاب العلم الذين يتصدرون لحماية دين الناس لعجزت عن أنك تذكر عشرة أو خمسة في كل منطقه، ما من مسلم إلا وهو في حاجةٍ إلى من يصون دينه يتفقه عنه ما يلزمه في عبادته ومعاملته ثم إذا ذهبت وتبحث وجدت العامة منصرفون عما يلزمه من التفقه في أمور دينهم وفي زُهدهم فيه، وما هو أعظم أن تجد طلاب العلم في عزوفٍ عن العلم وفي زُهدٍ في ما من الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بمعرفته وأقبل بقلوبهم عليه، أحبوا العلم وعرفوا فضله وعرفوا مكانته ومنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بلقاء أهل العلم وطلاب العلم ويسر لهم شراء الكتب، ثم تجده كأنه عدو لوقته يُريد أن يُشتت وقته بأي طريقه ثم

يقول: الحمد لله طلاب العلم موجودين وفرض الكفاية قام به غيري، هذا أولًا: أن فرض الكفاية لم يقُم به أحد، ثم الخطاب موجه الآن لمن وُفقوا لطلب العلم والإقبال عليه، وهو أن ذهب جمع من أهل العلم أن من شرع في طريق العلم فإنه يلزمه الاستمرار فيه، اختلف أهل العلم في ذلك لكن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «**مضتْ السُّنة بأن الشروع في العلم والجهاد يُلزم كالشروع في الحج**» يقول شيخ الإسلام: «**يعني أن ما حفظه من علم الدِّين وعلم الجهاد ليس له إضاعةً**»، وفي هذه العبارة المختصرة تحرير لمحل الخلاف وهو أن ما من الله عَزَّوَجَلَّ عليك به من العلم ليس لك أن تُضيعه، مسائل العلم تعرفون أنها كثيرة، وكل مسألة مستقلة، فإذا حصَّلت مسألةً أو شرعت في طلبها فيلزمك إتمامها، فإذا أتممتها وجب عليك حفظها وعدم إضاعتها؟ لأن العلم من الجهاد والنبي عليه الصَّلَاة والسلام يقول كما جاء في صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر يقول: «**مَن عُلِّم الرمي ثم تركه فليس منَّا، أو فقد عصى**» وجاء في رواية خارج الصحيح يقول النبي ﷺ: «**فهي نعمةٌ كفرها**» هذا في باب الرمي والجهاد، فكيف في باب العلم سهام الدِّين التي تذب فيها عن شريعة رب العالمين أعظم الجهادين الجهاد بالعلم والسنان، فإذا كان هذا في حق الرمي من تعلَّم باب الرمي في الجهاد ثم نسيه تبرأ منه النبي عليه الصَّلَاة والسلام وأخبر أنه قد عصى، فكيف بمن يُعلمه ربه تبارك وتعالى ويهديه ويمُن عليه بالفقه في دينه، ثم يزهد في ذلك الباب، وكأنه في غِنى عنه لاشك أن هذا يا إخوان من الأمور الخطيرة.

بالنسبة لتقسيم إلى فرض عين وفرض كفاية، فيدل عليها أصلان في قوله تبارك وتعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٤٣] فدل على أن هناك سائلًا ومسؤولًا،

المسؤول ينبغي له أن يكون عنده من العلم ما يُجيب به من سأله، وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢] .

من الأسباب وهو السبب الثالث في ترك طلب العلم وعدم الاستمرار:

ضعف الارتباط بالعلم وعدم الحياة معه، طالب العلم حياته لله تبارك وتعالى، كما قال الله تبارك وتعالى لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] ، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ وقد عرفنا أن العلم من الجهاد فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] فالأصل أن حياة طالب العلم أن تكون في العلم: إما في علمٍ يتعلمه، أو في علمٍ يعملُ به مما تعلمه سواءً فيما يعلق بحقوق الله عَزَّوَجَلَّ عبادةً ومعاملة، أو فيما يتعلق بحقوق الناس، أو يكون في دعوةٍ للناس حتى في مجالسه التي يجالسهم بها، فالأصل أن حياة طالب العلم أن تكون للعلم، وهذا الأمر لما أدركه من أدركه من فقهاء هذه الأمة وساداتها أصبح بعد أن أدوا ما عليهم من الواجبات وتنافسوا في المستحبات علت همتهم إلى أن يجعلوا عاداتهم والمباحات في حقهم قُربات يتقربون فيها إلى الله جل وعلا.

معاذ أعلم هذه الأمة بالحلال والحرام يقول كما في «**صحيح البخاري**»: «**إني لأحتسب رقدتي كما أحتسبُ قومتي**» يعني إني أرقد يقول: «**إني أرقد وأقوم وإني لأحتسب رقدتي كما أحتسب قومتي**» قومته؛ يعني قيامه لليل فهو يحتسب يعني ينوي نيةً صالحة بنومه ورقدته أن تكون عونًا له على قيام الليل بجدٍّ ونشاط ويكون مستحضرًا لما يُتلى من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

فحتى في نومهم كانوا يتعبدون الله جل وعلا بعلمه، والآثار عنه في هذا الباب كثيرة جدًّا، ولذا استمر طلبهم للعلم إلى وفاتهم ما انقطعوا عن العلم قيل لابن المبارك: «**إلى متى تكتب هذا الحديث؟ قال: لعل الكلمة التي أنتفع بها ألم أسمعها بعد**» أنا لماذا أطلب العلم؟ أطلبه لأنتفع به، لعل الكلمة التي أنتفع بها عند الله جل وعلا تكون سببًا في نجاتي يوم القيامة لم أسمعها إلى الآن، وجاء عنه الكثير أنهم يقولون: طلب العلم من المهد إلى اللحد، أطلب العلم من المهد إلى اللحد، والإمام أحمد عبارته المشهورة: «**مع المحبرة إلى المقبرة**» وسُئل سؤالًا أصرح من ذلك فقيل له: إلى متى تطلب العلم يا أبا عبد الله؟ قال: «**إلى أن أدخل القبر**» وهذا راجع إلى النية التي تقدمت هو الذي قال: «**طلب العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته**» يعلم أنه في عبادة فلما أترك أنا الآن في عبادة لماذا أترك؟ يعني لو ذهبت إلى أهل الصدقات وغيرهم من أصحاب الأعمال الخيرة تقول له: إلى متى وأنت تستمر في العلم؟ قُل: «**إلى أن ألقى الله**» طيب وطالب العلم إلى متى تطلب العلم؟ إلى أن أُحصل شهادة إلى أن أُعدل مستواي الوظيفي، إلى أن أنال درجة الدكتوراه وبعد ذلك يترك العلم.

النية -يا إخوان- لها أثر في طلب العلم، وممن يتصل بهذا وهو من الأهمية بمكان فيما يتعلق بصلة طالب العلم بالعلم صلته بأهله أن يكون على دوام الصلة بأهل العلم لا سيما الكبار منهم النابهين يكون مداوم للصلة بهم يُكثر من مجالستهم واللقاء بهم ومشورتهم وأخذ نصيحتهم، وما تضرر كثير من طلاب العلم إلا لما زهدوا في تلك المجالس واستغنوا عنها، وظنوا أنهم ليسوا في حاجةٍ إليها، فتجد أن صلته بأهل العلم ضعيفة إن لم تكن منقطعة، وترتب على ذلك أنه مما حُرم مما في تلك المجالس من الفوائد والعوائد، وفاته عقلُ أهل

العلم ونُصحهم ووعظهم وتذكيرهم فيجد أن بعد مدة نسي علمه لقلة من يتذاكر به معه، فوجد قسوةً في قلبه إذ أنه حُرم ما في تلك المجالس من الفضائل العظيمة التي سنُشير إلى بعضها، فترتب عليه بعد مدة أنه ينقطع عن العلم ولا يستمر في طلبه، بل يا ليت من كان هذا حاله لزم مكتبته، وجلس يقرأ ويبحث ويُحرر في المسائل، وإنما استعاض عن تلك المجالس بمجالس اللهو والغفلة وأكثر من مجالسة العامة وأكثر الحديث معه في أمور دُنياه وسياساتهم والحديث في مجريات، وفي كل يوم حدث جديد وخبر جديد وتجده حريص على أنه يتابع هذه الأمور حتى لا يُحرج معه، والله يذكر المسألة أنا ما اطلعت عليها، يتفشل مثلما يقولون لماذا؟ حتى يبيض وجهه في ذلك المجالس ونسي أن يُبيض وجهه يوم يلقى الله جل وعلا، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦] ذلك البياض الحقيقي، أما في هذه المجالس فلو قيل ما قيل فيك سليمان بن سحمان كلكم يعرفه قيل عنه: ما يُفرق بين القثاء أو الخيار أو البطيخ، ولكنه يعرف رجال الكتب الستة أكثر من معرفته بأهل الدرعية، وغيره كثير من أهل العلم ما كان عندهم حديث في أمور الدنيا أو الانشغال بها ما يضرهم، يعني أن تجد في نفسك نقصًا في مجالس عامي من العوام إذا لم تُحسن الكلام في أمور الدنيا، بينما لا تجد عندك عزة عندما تكون على إلمامٍ في مسألة من مسائل الدين والشرع هو يجهلها، لاشك أنك بخست القدر الذي منَّ الله عَزَّوَجَلَّ به عليك أين علم الدين من علم الدنيا؟ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧]، فافرح بنعمة الله تبارك وتعالى عليك، أقول هذا يا إخواني الذي استعاض بتلك المجالس بمجالس أهل اللهو والغفلة، ثم إذا رجع إلى مكتبته يا ليته يفتح كتابًا، وإنما يبدأ بالتنقل ما بين وسائل التواصل ومتابعة بعض

التغريدات لبعض المشاهير أو بعض المقاطع القصيرة في اليوتيوب أو نحوها، ثم يظن المشكلة أنه يظن أنه ما زال طالب علم، ويتكلم في كل مسألة بل في بعض النوازل، ويكتب ويُشارك في كل صغيرةٍ وكبيرة ويفتح له حساب باليوتيوب أو قناة في التليجرام وينشر فيها من الفوائد، إذا عاش أنه طالب علم بهذه الهيئة فعليه أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة وأن ينقذه مما حل به، يعني من الآفات العظيمة أن يكون الإنسان مُبتلى ومريض وهو لا يشعر بذلك أما إذا علم أنه -ولله الحمد- يرجو فضل الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته وأن الله عَزَّوَجَلَّ علَّه أن يتداركه بأن يمُن عليه بالإقلاع عما هو فيه من تقصيرٍ وتفريط يعترف أنه مقصر هذا يرجو أن يناله خير الله تبارك وتعالى وأن تهب عليه نسمات الرحمة من الله جل وعلا، فيُخرجه ممن حل به من تلك الآفات، وهذه المجالس التي ذكرناها فيما يتعلق بمجالس الغفلة الأصل فيها قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ما جالس قومٌ مجلسًا لا يذكرون الله فيه إلا قاموا كما يقومون عن جيفة حمار، وهذا المثل ما ضُرب إلا لبيان شناعة مثل هذه المجالس التي لا يُذكر الله جل وعلا فيها**.

يقول ابن القيم رحمه الله عن هذه المجالس: فهذا أي: هذه المجالس التي تكون على مؤانسة الطبع وإمضاء الوقت وتضييعه يقول: «هذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يُقسي القلب ويُضيع الوقت»، والأصل أن الإنسان يكون مُقبل على مجالس العلم ويحرص على لزومها، والمُكث فيها إن كان الله عَزَّوَجَلَّ يوجه خطابًا لنبيه ﷺ قائلًا: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ**﴾ لنبينا ﷺ ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ**

﴿فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] فكيف يا طالب العلم؟ يعني النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سيصبر نفسه مع من هم دونه أمرًا من ربه تبارك وتعالى، فكيف بطالب العلم مع منهم أرفع منه أسبق منه في الإيمان وأسبق منه في العلم والعمل؟ لاشك أنه أحوج إلى ذلك، والأحاديث في فضل مجالس الذكر كثيرة جدًّا ولا تخفى عليكم نُشير إلى بعضها مثل ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الذي تقدم: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عملُهُ لم يُسرع به نسبه**». هذه القاعدة في طلب العلم في حياته: «**من بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه**»، فإن كان النسب لا يُسرع بك فاعلم أن مالك وذكاءك وفطنتك وكثرة كتبك لن تنفعك عند الله عَزَّوَجَلَّ إذا بطأ بك العمل إن لم تكن طالب علمٍ بمعنى الكلمة تلتزم آداب العلم في نفسك علمًا وعملًا فلن يُسرع بك نسبك ولا غيره من الأسباب.

كذلك ما جاء عن أبي هريرة في صحيح مسلم من قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -وهو حديث عظيم- يقول النبي ﷺ: «**إن لله تبارك وتعالى ملائكةً سيارةً فُضلى**» يعني ملائكة زائدة على الملائكة التي تكتب على بني آدم، «**يسيرون في الأرض يلتمسون حِلق الذِّكر**» مجالس العلم «**فإذا وجدوا حلقة ذكر جلسوا فيها ويتداعون، فلا يزال بعضهم يحتف ببعضٍ ويحيط بعضهم بأجنحة بعض حتى يبلغ السماء الدنيا، فإذا انفضوا**» يعني من مجلس الذكر «**صعدوا إلى ربهم تبارك وتعالى، فيسألهم الله عَزَّوَجَلَّ وهو أعلمُ بهم منهم**» يعني أعلم بالملائكة بعباده

جل وعلا، فيقول: «**أين كنتم؟ فيقولون: أتينا من قومٍ يسبحونك ويحمدونك ويهللونك ويكبرونك، ويسألونك ويستجيرون بك ويستغفرونك، فيقول الله تبارك وتعالى: وما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: «وهل رأوا جنتي؟ فيقولون: لا، فيقول الرب تبارك وتعالى: فكيف لو رأوا جنتي؟ ثم يقول الله جل وعلا: وممن يستجيرون؟ يقولون: يستجيرون من نارك، فيقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **وهل رأوا ناري؟ فيقولون: لا يا رب، فيقول: وكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك، فيقول الرب تبارك وتعالى**» الغفور الرَّحِيْم التواب الكريم الجواد يقول: «**قد غفرتُ لهم غُفر لهم كلهم**» من كان متكلمًا منهم وسامع -نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلني وإياكم منهم- فتُبادر الملائكة فتقول: «**فيهم فلان ليس منهم إنما أتى لحاجة فجلس، فيقول الرب تبارك وتعالى: أُشهدكم إني قد غفرتُ له هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**».

هذا الحديث على هذا الفضل العظيم والمكانة الجليلة لو ما كان إلا هو في فضل مجالس الذكر لكان كافيًا -وللأسف- أن أحيانًا يرد على لسان بعض أهل الخير والفضل على سبيل النظر على نظرة ازدراء يقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**» كانت سبب في مغفرة الله تبارك وتعالى لذاك العبد ومن غفر الله عَزَّوَجَلَّ له دخل الجنة ونجا من النار، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فكيف بمن غفر الله تبارك وتعالى له؟ مجالس الذكر لو لم يكن فيها إلا هذا لكان لها شرف ومنزلة وفضل عند الله تبارك وتعالى.

ولعلنا نلطف بفائدة: أيضًا تتصل بهذا الموضوع وهي دالة على فقه استنباط أهل العلم في

حديث أبي هريرة يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**» ماذا استنبط أهل العلم من هذا الحديث؟ النووي في شرحه على صحيح مسلم يقول: «**وفي هذا الحديث الحث على مصاحبة أهل الدين في كل شيء لأن صاحبهم يستفيد من أخلاقهم وبركتهم وحسن طرائقهم ويأمن المفسدة من قِبلهم**» وهذا توجيه عظيم من النبي ﷺ لأن الإنسان أكثر من يخالط الأصل الأصل أنه أكثر من يخالط أهل بيته فإذا كانوا أهل دين كانوا عونًا له على صلاحه وثباته على دين الله تبارك وتعالى.

هذا ليس خاصًّا بمن يختار الرجل أن تكون زوجةً له، ينبغي أن يكون هذا حاله مع كل من يُصاحبه في كل شأنٍ من شؤونه خصوصًا من يتلقى عنهم أمر دينه، ما به السلامة في دينه أن يكونوا أهل دين، لأنهم إن كانوا أهل دين تأمن الغيبة في مجالسهم، تأمن من الكذب في أخبارهم، تأمن من أن تكون مجالسهم مجالس لغوٍ ولهوٍ وغفلة، وإنما تكون مجالس زيادة إيمان وقُربة وطاعة لله تبارك وتعالى، هذا الأمر لما عقله من عقله من السلف لازموا مشايخهم وحرصوا على مجالسة إخوانهم ومذاكرة العلم معهم، وما أغفلوا ذلك المسور بن مخرمة التابعي الجليل يقول: «**كنا نلزم عمر بن الخطاب نتعلم منه الورع**» وابن المبارك قال: «**قال سفيان الثوري: ربما لقيت الأخ من إخواني فأقيم شهرًا عاقلًا بلقائه**» يبقى شهر كامل منتفع بعقل أخيه ونصيحته التي نصحه بها.

ويقول ابن المبارك: «**لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان الثوري لكنت كسائر الناس**». ابن المبارك الذي يُضرب فيه المثل في العلم والعمل والعبادة والجهاد والزُّهد

يقول: هذه الكلمة: «**لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان الثوري لكنتُ كسائر الناس**». اهـ.

وبما أنا تكلمنا عن ملازمة أهل العلم والحرص على مجالسة طلاب العلم ومذاكرتهم أيضًا هنا أصل عظيم ينبغي مراعاته وهو ناشئ عن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، أهل السُّنَّة والجماعة لا يعتقدون العصمة في أحد بعد الأنبياء والرسل، فأهل العلم وطلاب العلم أبى الله عَزَّوَجَلَّ أن تكون لهم العصمة، لابد أن يكون منهم زلة أو خطأ أو نقص عن الكمال، ولكن المؤمن ينبغي له أن يراعي التعامل معهم على قاعدة وأصلٍ عظيم، أيضًا دالٌ على فقهٍ عظيم من أهل العلم، وأقرأ لكم عبارة الشيخ ابن سعدي رحمه الله في «**الوسائل المفيدة للحياة السعيدة**» عند قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا يفرُك مؤمنٌ مؤمنةً إن كره منها خُلقًا رضي خُلقًا آخر**» الحديث عن الزوجة كالحديث الذي قبله، لكن ما الفائدة التي يستنبطها أهل العلم؟ كما قلتُ لكم: أهل العلم حياتهم في العلم كله ليست قاصرةً على بابٍ من أبوابه يقول ابن سعدي في هذا الحديث: «**فائدتان عظيمتان: إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب والمعامل؛ أي: كل من تكون بينك وبينه معاملة «وكل من بينك وبينه عُلقةٌ واتصال أن توطن نفسك على أنه لابد أن يكون فيه عيبٌ أو نقص، أو أمرٌ تكرهه فإذا وجدت ذلك فقارن بين هذا وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة بتذكر ما فيه من المحاسن..**» إلى آخر ما ذكر رحمه الله.

هذا الأمر لماذا نركز عليه؟

لأن من مداخل الشيطان على كثيرٍ من طلاب العلم أنه صرفهم عن مجالس أهل العلم وعن صحبتهم حتى أنه لا يقنع بشيخٍ ولا طالب علم فقيل له: فلان؟ قال: عنده كذا، وفلان

سمعت له أنه يقول كذا وفلان حصل منه زلة كذا، وفلان وإذا به لا يقنع بأحد من أهل العلم، ولو أنصف نفسه وصدق النصح لها لقارن أولئك بحاله هو في خاصة نفسه سيجد يقينًا أنه أكمل منه في العلم والعمل، ولذا جاء عن حمدون القصار رحمه الله تعالى يقول: «**من رأيتَ فيه خصلةً من الخير فلا تُفارقه فإنه يُصيبك من بركاته**».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -وهذا من عجيب فقهه في شرحه لحديث جبريل يقول: «**فمن الإحسان أن يُحسن الطالب الظَّن بمن يتعلم منه العلم، أو يسمع منه الحديث لينال بذلك بركة العلم فقد كان بعض المتقدمين إذا خرج إلى شيخه تصدق في طريقه بشيءٍ من المال وقال: اللهم استر عيب معلمي عني ولا تُذهب بركة علمه مني**» أما من يترك كل من وجد عنده زلة فهذا لن يبقى له أحد، ويشتد الأمر خطورةً إذا عاب أولئك ثم إذا به يتلقى عن غيرهم الكلام في أهل العلم الذين عُرفوا في السُّنَّة والاستقامة عليها، إذا عُرف رجلٌ بالسنة والاستقامة عليها وصلاح الحال فإنه مما ينبغي أن يُقال فيه مثل ذلك، أما إن كان الرجل صاحب بدعةٍ وعلى هوىً وضلالة فلا يُقال فيه الكلام الذي معنا.

ومن عجيب أحوال الناس أنك تجده لا يجد طالب علم إلا ويعيبه في شيءٍ مما هو عليه إن كان من أصحاب السُّنَّة وأهل المنهج السوي المستقيم، ثم إذا به يلهج بذكر أهل البدع ويُمجدهم ويثني عليهم فإذا عيب ما عنده من سوء الاستقامة وعدم صلاح الحال أثنى عليهم بما هم يحسنونه وصرف النظر عما عندهم من عيب، وهذا من انتكاس مفاهيم العلم ومعرفة حقائقه.

العلم ليس بكثرة المسائل ولا بالتوسع في علوم الآلة وإهمال علم المقاصد، العلم كما

قال من قال من السلف منهم الإمام مالك وغيره: «**ليس العلم بكثرة المسائل، وإنما العلم الخشية**» فصاحب السُّنَّة قد حقق ما يجب عليه من الاعتقاد في ربه تبارك وتعالى ويتكلم فيما يُحسن من أبواب العلم فخُذ عنهم ما يُحسنون، وتجاوز عن زلته التي وقع فيها، أما ذاك الذي أجاد وأحسن في علوم الوسائل ولم يوفق في علم الغايات، هو في نفسه لم يوصله ما أجاد فيه وأتقنه من علوم الوسائل ولم يوصله إلى ما يجب لله تبارك وتعالى فيما يتعلق بحقه فيما يتعلق بالاعتقاد فيه في أسمائه وصفاته فيما يجب عليه من الاتباع لسنة نبيه ﷺ، ومن المعلوم أن فاقد الشّيء لا يعطيه فكيف ترجو أن يكون ذاك الرجل سببًا في استقامتك وهدايتك؟

من الأسباب التي أدت بكثير من طلاب العلم إلى ترك الطلب: الكسل والتفريط، وعدم استشعار المسؤولية والحاجة العظيمة للعلم سواء في خاصة نفسه أو حاجة الأمة، ولذلك كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُكثر من الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من الكسل، وقد رويت عنه في ذلك أحاديث كثيرة، يعني رويت الأحاديث في هذا الباب عن النبي ﷺ عن قرابة اثنا عشر صحابيًا، اثنا عشر صحابي رووا استعاذة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالله جل وعلا من الكسل، من ذلك ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه المتفق عليه عن النبي ﷺ تعرفون أن أنس كان خادم للنبي ﷺ يقول أنس: «**كنتُ خادمًا للنبي** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، **وكنتُ كثيرًا ما أسمعه يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل**» وكذلك جاء في غيره كحديث زيد بن أرقم أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل..**» إلى آخر الحديث، بل شُرع لنا أن نستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من العجز والكسل صباح مساء، كما في حديث ابن مسعود الحديث المشهور: «**أمسينا وأمسى الملك لله**» وفي الحديث يقول: «**أعوذ بك من الكسل وسوء الكِبر،**

رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذابٍ في القبر».

فالشاهد: هذا مما يُشرع في الصباح والمساء.

ومن الأمور التي ترفع من الهمة والعزيمة: استشعار المسؤولية أن تعلم علمًا يقينيًا أنك موقوفٌ بين يدي الله تبارك وتعالى ومسؤول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤] ستسأل ورب الكعبة: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦] ، ستُسأل ورب العزة قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن علمه فيما عمِل فيه، وعن عُمره فيما أمضاه أو فيما أفناه، وعن وقته فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه**»، وستُسأل عن عمرك وعن وقتك وعن علمك، هذه الأمور كلها ستسأل عنها صاحب الإيمان الذي يوقن بأنه ملاقٍ ربه تبارك وتعالى لاشك أنه سيستغل هذه الأمور في أعظم الأعمال التي تُقربه إلى الله جل وعلا، وقد عرفنا أن من أعظمها طلب العلم.

من الأمور التي تُحيي في قلب طالب العلم الهمة العالية وتطرد عنه الكسل والعجز: أن يستشعر حاجته للعلم، وحاجة الناس إلى العلم، أنت في حاجتك محتاج إلى العلم لِما تقدم من أن العلم أفضل العبادات والقُربات والإنسان في حاجة إلى عملٍ صالح يُقربه إلى الله تبارك وتعالى، ولذلك كانت همة الصحابة رضي الله عنهم أنهم يأتون إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيقولون: يا رسول الله، «**أي العمل أفضل؟**» رجاء أن تكون هذه الأعمال مقربة لهم عند الله جل وعلا.

أيضًا أن تعلم أن العلم حياة كما قال الله جل وعلا: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] فالحياة بغير

العلم ليس بحياة حقيقية، بل هي موات، الجهل موات، ولذا الماء عندنا مادة الحياة سواء حياة الأرض أو حياة كل شيء كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠] وقد شبه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بل شبه الله تبارك وتعالى العلم والوحي بالغيث لذا يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل غيثٍ أصاب أرضًا كثيرة**» وذلك بعد ذلك تتمة الحديث ولا يخفى عليكم.

وفيه فائدة لطيفة: وهي أن كما أن الماء به حياة الأرض فإن العلم به حياة القلب، يا من تشكو قسوةً في قلبك وضعفًا في همتك وقلةً في عزيمتك وتفريطًا في أعمال الخير، والإقبال على الله جل وعلا عليك بطلب العلم، طلب العلم به حياة القلوب، الله عَزَّوَجَلَّ كما قال لنا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧] هذا مثال ضربه الله عَزَّوَجَلَّ للكتاب الذي أتاه إيانا، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ يحيي بالغيث والمطر الأرض بعد موتها، فكذلك يُحيي الله عَزَّوَجَلَّ بنور الوحي القلوب بعد قسوتها، ولذلك وصف الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا العلم كما وصفه بالحياة وصفه بأنه نور، فقال جل وعلا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ [المائدة:١٦]، وهذا حاجة طالب العلم إليه في خاصة نفسه وهو يحتاج هذا الهدى يحتاج هذا النور في الأزمنة التي تكثر فيها الفتن وتكثر فيها الشبهات، يكثر فيها الهرج يكثر فيها القيل والقال، اختلاف طلاب العلم فيما بينهم، اختلاف أهل العلم فيما بينهم يقع طالب العلم في حيرة لا يهتدي إلى أي الأقوال هي التي على الحق وأيها على الباطل، فإذا لم يكن

له صلة بالعلم واتصال به ودوام سؤال لربه تبارك وتعالى، فإنه لا يوفق في مثل هذه الأبواب.

أيضًا من الأمور التي تُحيي الأمة: استشعار الحاجة العظيمة إلى طلب العلم، لا سيما حاجة الناس لهم، كم في الناس اليوم من ذنوب ومعاصي ومن انتشار الشَّرْك بالله تبارك وتعالى، بل ومن انتشار البدع والخرافات، هذه الأمور إن لم يكن طلاب العلم في وفرةٍ في بلدٍ من البُلدان، فإنها تعم تلك البلاد يعمها الفساد ويعمها التفريط، فطالب العلم إذا استشعر حاجة أمته إليه، فإنه يقبل على طلب العلم، إذا عظُم الأمر إذا علم النصوص الواردة في رفع العلم وقبض العلماء وانتشار الجهل، هذه الأمور ترفع في نفس طالب العلم الإقبال على العلم أن ينكب على العلم، عله أن يكون من الأئمة الذين يُجددهم الله عَزَّوَجَلَّ أو من الذين يُجدد الله عَزَّوَجَلَّ بهم دينه.

ومن الأمور الأخيرة: أن تعرف فضل الذي طلبته وألا تلتهي عنه بالدنيا، وما يدفعها، وأن تتأمل قول الله تبارك وتعالى، وهذا يُحيي قلب من آثار الدنيا على الآخرة، وشغب فتن الدنيا وملذاتها عن طلب العلم، تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ، وهي الآية التي قدمنا ذكرها، ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

نحن نعلم أن كل العلم الذي علم الله عَزَّوَجَلَّ به بنو آدم إنما هو قيل: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، هذا العلم القليل بل جزء منه وهو الذي أوتيه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فوصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه عظيم، فإذا قابلت هذا الوصف بما وصف الله عَزَّوَجَلَّ تماع الحياة الدنيا في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] عرفت متاع الدنيا كله، هذا الذي

يتنافس عليه من تنافسوا من لدن ابني آدم إلى قيام الساعة متاع الدنيا هذا كله قليل بينما وصف الله عَزَّوَجَلَّ ما تقدم من العلم بأنه عظيم، فكن يا طالب العلم ممن وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ السبب أنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٧] علم أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ومنه طلب العلم الشرعي خيرٌ من اللهو ومن التجارة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة:١١] .

وأختم بأبيات للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله تعالى يقول:

إن الأُولى اجتهدوا بشأن حظوظهم ... وحُطامهم فتكالبوا وتحطموا

ليس الذي طلبوه أعلى مقصدًا ... كلا وليسوا هم بأولى منكمُ

وإذا تفانوا هم على الفاني سُدى ... فعلى الذي يبقى تفانوا أنتمُ

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يثبتني وإياكم على طلب العلم، وأن يزيدنا من العلم النافع.

وبإذن الله عَزَّوَجَلَّ من المجالس القادمة سنشرع في المقصود، ستكون هناك مجالس عن القراءة وقواعدها وآدابها وما الذي ينبغي فيه، وتوجيهات لتكون القراءة نافعة ومثمرة، وبعد ذلك مقدمات عن الكتب وقواعد للتعامل معها، وكيفية الانتفاع بما يصدر خاصةً في المطابع الحديثة، وبعد ذلك يكون هناك إرشادات وتوجيهات في أشهر الكتب التي ينبغي العناية بها على أن تكون على مراحل:

تكون هناك مكتبة وجيزة، وهي التي ينبغي أن يعتني بها طالب العلم ويؤسس عليها مكتبته ابتداءً، ولا مانع من أنه يحتفظ بما قيل في المكتبة المتوسطة والمكتبة المتوسعة شيئًا فشيئًا، لكن ينبغي له ألا يُخل بالمرحلة الأولى، فإذا أتمها ينتقل إلى المرحلة الثانية.. وهكذا.

والله تَعَالى أَعْلَم

وصَلَّى الله وسلَّم عَلَى نَبيِّنَا مُحَمَّد وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن.